الحديث الخامس

عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أَجَلْ والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويُفتحُ بها أعين عمى وآذان صم وقلوب غلف. (رواه البخارى)

راوى الحديث:

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشى، ووالده عمرو بن العاص فاتح مصر - رضى الله عنهما - أسلم عبد الله فى السنة السابعة من الهجرة وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وكان شابًّا تقيًّا سباقًا إلى طاعة الله، وعبادته، فقد روى أنه عندما تزوج ذهب أبوه يسأل زوجه عن حاله معها فقالت فى أدب رفيع: نعم

الرجل عبد الله لم يطأ لنا فراشًا منذ جئناه – لأنه كان مشغولاً بالصيام وقيام الليل.

فشكا عمرو ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «ألم أخبرك أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقال: بلى يا رسول الله فقال له: إن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا، وصم صوم داود نبى الله؛ فإنه كان أعبد الناس فقد كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا».

وجاء فى صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أُخبِرَ رسولُ الله ﷺ أنه يقول: لأقومنّ الليل، ولأصومنّ النهار ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: «آنت الذى تقول ذلك؟ فقلت له: قد قلته يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: فإنك لا تستطيع ذلك، فصم، وأفطر، ونمْ، وقُمْ، وصم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك، قال صم يومًا، وأفطر يومين، قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال صم يومًا، وأفطر يومًا، وذلك صيام داود وهو أعدل الصيام قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك قال رسول الله ﷺ: لا أفضل من ذلك...»[1].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٢١٦، ٢١٧.

وكان عبد الله يجيد القراءة والكتابة، وقد شغف بكتابة أحاديث الرسول ﷺ، وتسجيلها، وكانت له صحيفة يدون فيها هذه الأحاديث سماها «الصادقة» وهو بذلك يعتبر أول من نال شرف كتابة الحديث النبوى وتدوينه، وقد اعترف له أبو هريرة رضى الله عنه بهذا السبق عندما قال – كما جاء فى صحيح البخارى – ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[1].

وكان – رضى الله عنه – على كثرة عبادته، وولعه بكتابة أحاديث رسول الله ﷺ مجاهدًا فى سبيل الله، فقد حضر الغزوات التى وقعت بعد إسلامه، وشارك أباه فى فتوحاته الإسلامية، فقد روى أنه كان حامل الراية فى موقعة اليرموك التى كانت بقيادة والده، وكان فى مقدمة المجاهدين الذين فتحوا مصر، وأخرجوا أهلها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، توفى رضى الله عنه فى مصر عام ٦٥هـ.

المعنى الإجمالى

أنبأنا القرآن الكريم أن بعض الكتب السماوية التى أنزلت

---

(١) فتح البارى ١ / ٢٤٩.

قبل القرآن الكريم قد بشرت ببعثة رسولنا محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...** ﴾ [الصف: ٦].

وكان اليهود يعلمون صفته من التوراة، ويدعون الله أن ينصرهم بهذا النبى المبعوث فى آخر الزمان الذى يجدون صفته فى التوراة، وعندما سئل عبد الله بن عمرو عن صفة نبينا محمد ﷺ فى التوراة، وكان قد قرأها، أشار إلى أنه موصوف فى التوراة ببعض صفاته التى ذكرت فى القرآن فقد وصف فيها بأنه شاهد، ومبشر ونذير، وحرز للأمة العربية، وهو عبد من عباد الله المخلصين، متوكل على الله، ومعتمد عليه فى كل أمر من أموره، ليس جافيًا ولا خشن المعاملة مع الناس، لكنه لين الجانب، موطأ الأكناف، خفيض الصوت حليم، يعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى

من أساء إليه، وقد أنسأ الله أجله حتى أكمل دينه، وأتم نعمته على المسلمين، وعاد الناس إلى توحيد الله بعد انحرافهم إلى عبادة الأصنام، وقد هدى الله به، وبكلمة لا إله إلا الله قلوبًا كانت مجبولة على الشرك، مطبوعة على الكفران، وفتح بهما عيونا قد عميت عن نور الحق، وآذانًا قد تصامت عن نداء الإيمان، ودعوة الحق.

من المباحث اللغوية :

(أَجَل) حرف جواب بمعنى نعم.

(مبشرا) البشارة المطلقة لا تكون إلا فى الخير، وتكون بالشر إذا قيدت مثل قوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ وهى حينئذ استعارة تهكمية.

(ونذيرا) الإنذار الإبلاغ، ولا يكون إلا فى التخويف، والنذير المحذر، فعيل بمعنى مُفْعِل، ومن أمثال العرب: قد أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ، ومعناه من أعلمك أنه يعاقبك على المكروه الذى يقع منك فى المستقبل ثم أتيت المكروه فعاقبك، فقد جعل لنفسه عذراً يكف به لائمة الناس عنه[1].

---

(١) لسان العرب / نذر.

ومعنى الصفتين أن الرسول ﷺ يبشر المؤمنين، والطائعين بالجنة، وينذر الكفار، والعصاة بالنار وعذاب الله.

(وحرزا للأميين) أى حافظًا لهم، وأصل الحرز الموضع الحصين، ومكان حريز أى حصين.

(ليس بفظ ولا غليظ) الفظ السيئ الخلق، الجافى الطبع، والغليظ القاسى القلب.

(ولا سخاب فى الأسواق) السخب فى الأسواق (بالسين) والصخب (بالصاد) رفع الصوت بالخصام.

(الملة العجواء) ملة إبراهيم عليه السلام التى غيرتها العرب عن استقامتها ورأى أعوج غير مستقيم.

وفى (أساس البلاغة للزمخشرى) أنه يقال: فى العود عَوَج بفتح العين، وفى الرأى عِوَج بكسرها.

ملامح بلاغية:

(والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) أكد هذا الخبر بالقسم بالله عز وجل، والجملة الاسمية، وإدخال (إنّ) عليها، وإدخال اللام على خبرها، للاهتمام بأمر هذا الخبر وإثباته، وإن أنكره المعاندون الجاحدون.

(وحرزا للأميين) الحرز فى الأصل المكان الحصين، استعير لرسول الله ﷺ؛ لأن العرب صاروا به أقوياء أعزة، وهى استعارة تصريحية أصلية؛ لأنها فى اسم جامد.

(ليس بفظ ولا غليظ) التفات من الخطاب إلى الغيبة، فبعد أن كان الكلام مبنيا على الخطاب - إنا أرسلناك - أنت عبدى - سميتك المتوكل، تحول إلى الغيبة (ليس بفظ ولا غليظ).

وهذا الالتفات ينبه ذهن السامع، ويزيده يقظة ونشاطًا، ذكر صاحب الكشاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ... **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.

شرح وبيان

(... أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة) المقصود من رسول الله - كما هو واضح - رسولنا محمد ﷺ.

والتوراة هى الكتاب الذى أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام جملة واحدة.

(والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) أى إنه ﷺ موصوف فى التوراة بأوصاف أقل من الأوصاف التى وصف بها فى القرآن، لأن أوصافه فى التوراة كانت من قبيل البشارات وقد اشتمل القرآن الكريم على صفات كثيرة لرسول الله ﷺ منها قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]

وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ هذه آية من سورة الأحزاب وقد اتفق نزولها فى القرآن الكريم، والتوراة.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم ينادِ نبيه ورسوله

محمداً ﷺ باسمه المجرد، بل ناداه بوصف النبوة، والرسالة تكريمًا له، وتعظيمًا لشأنه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

وفي الوقت نفسه نجد القرآن يحكي أن الله سبحانه وتعالى قد نادى أنبياءه، ورسله السابقين عليهم السلام بأسمائهم المجردة قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ [البقرة: ٣٥]

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ أى شاهدا لأمتك يوم القيامة بتصديقهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[البقرة: ١٤٣]

قال صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآية: «روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون بتبليغ الأنبياء فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا، وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه، الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم»(١).

وقد روى البخارى عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك، وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟

(١) الكشاف ١/٩٩.

فيقولون ما أتانا من نذير، فيقول من يشهد لك؟ فيقول محمد، وأمته فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قوله جل ذكره: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾(١).

وهذه منزلة عظيمة اختص الله بها محمداً ﷺ، وأمته يوم القيامة، ولذلك تشرئب أعناق الناس من الأمم السابقة إلى تلك المنزلة الرفيعة، ويودون أن لو كانوا من أمة محمد ﷺ، فقد روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل من الأمم إلا ودّ أنه منا أيتها الأمة ما من نبي كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم»(٢).

ولعلك أيها القارئ تتساءل لماذا لم يشهد الله لأنبيائه السابقين ابتداء، دون حاجة إلى شهادة محمد ﷺ وأمته؟

والإجابة عن مثل هذا التساؤل ذكرها الإمام الرازي في تفسيره قائلاً: «الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد ﷺ في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى، وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعًا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل

---

(١) فتح الباري ٨/ ٢١.
(٢) نفسه ٨/ ٢٢.

بالنسبة إلى الفاسق، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهاراً لعدالتهم، وكشفًا عن فضيلتهم ومنقبتهم»[1].

(ومبشرا ونذيراً وحرزا للأميين) أى حافظًا يحفظ أمة العرب بدينه الذى وحدهم بعد تفرق، وقواهم بعد ضعف، والأميون جمع أمى وهو الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، وهو منسوب إلى الأم إشارة إلى أنه بقى على حالته التى ولدته أمه عليها، وسمى العرب أميين؛ لأنهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة إلا قليلاً منهم وقد وصفهم القرآن بهذه الصفة فى أكثر من موضع قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢].

وقد ذكر الإمام القرطبى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- قول النبى ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

وقول ابن عباس رضى الله عنهما: «كان نبيكم ﷺ أميًّا، لا يكتب ولا يقرأ، ولا يحسب»[2].

---

(١) مجلد ٢/٢/١١١.

(٢) ص ٢٧٣٤، ٢٧٣٥.

وقد كانت صفة الأميّة فى رسول الله ﷺ وسيلة لإظهار صدقه، وتبليغه القرآن عن ربه؛ لأنه لو كان يعرف القراءة والكتابة لقال المشركون إنه ألّف القرآن من عنده قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨]

أما وصف العرب آنذاك بأنهم أميون، فهو بيان للواقع، وإظهار لحالهم التى كانوا عليها، وليس مدحا لتلك الأمية، أو تنويهًا بها، بل إن أميتهم كانت سببًا فى استخفاف اليهود بهم، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...** ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وإياك أيها القارئ أن يخطر ببالك أن الإسلام يحب الأمية، أو يرغب فيها؛ فإن طلب العلم فى الإسلام فريضة على كل مسلم، ومسلمة، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨] ـ تدرك منزلة العلم،

والعلماء فى الإسلام، وقد رفع رسول الله ﷺ العالِمَ على العابد درجات، ودرجات حين قال: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1].

وما أحسن قول على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فى أهل العلم:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

(أنت عبدى ورسولى) كلمة العبد تطلق ويراد بها الإنسان مطلقا؛ لأنه مربوب لله عز وجل، وقد يراد بالعبودية الخضوع والتذلل والطاعة[2].

---

(١) أبو داود والترمذى.

(٢) لسان العرب (عبد).

وقد بلغ رسول الله ﷺ فى طاعة الله، والخشوع له وعبادته منزلة خاصة لم يرق إليها أحد من الناس حتى الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ ولذلك شرفه الله بالإضافة إليه فى قوله: (أنت عبدى ورسولى) وكذلك شرفه بالإضافة إليه فى قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا...** ﴾ [الإسراء: ١]

وقد اختار ﷺ وهو فى أشرف الأحوال، وأسمى الدرجات أن يشرفه الله بهذه العبودية. روى الإمام الرازى فى تفسيره أن رسول الله ﷺ لما وصل إلى الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة فى المعراج أوحى الله إليه يا محمد بم نشرفك؟ قال يا رب بأن تنسبنى إلى نفسك بالعبودية.

وهذه العبودية الخالصة لله يتشوف إليها أكابر المسلمين، وتهوى إليها أفئدتهم، وتتعلق بها قلوبهم، فكان الإمام على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) يقول: كفى بى فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بى شرفًا أن تكون لى ربًّا، اللهم إنى وجدتك إلهًا كما أردت، فاجعلنى عبداً كما أردت.

وقال القاضي عياض:

ومما زادني عجبًا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وجعلك خير خلقك لي نبيا

وقد تمثلت هذه العبودية لله في رسول الله ﷺ، فعاش بين أصحابه متواضعًا، لا يتعالى عليهم، ولا يحب أن يكون مميزاً بينهم، فقد روى أنه كان في سفر مع أصحابه فلما حان موعد الطعام، عزموا على إعداد شاة يأكلونها فقال أحدهم: عليَّ ذبحها، وقال الآخر: عليَّ سلخها، وقال الثالث: عليَّ طبخها فقال النبي ﷺ: وعليَّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك العمل فقال: علمت أنكم تكفونني ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزاً بين أصحابه.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه دخلت السوق مع الرسول ﷺ ليشترى سراويل، فوثب البائع إلى يد النبي يقبلها، فجذب يده ومنعه قائلاً: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال: صاحب الشيء أحق بأن يحمله.

وفى وصفه بالعبودية لله، وأنه رسوله إشعار للمسلمين فى كل زمان ومكان ألا يفرطوا فى رفعته عن منزلته التى ارتضاها لنفسه، وارتضاها لها ربه، كما فعل النصارى من قبل؛ ولذلك قال ﷺ : «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»(١).

وصدق الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ [الكهف: ١١٠].

(سميتك المتوكل) سمى الله رسوله ﷺ المتوكل؛ لأنه كان يتوكل على الله فى كل أموره أى يفوض أموره إليه، ويتقبل النتائج التى أرادها الله سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يتوكل على الله بقلبه، ويأخذ بالأسباب، فيعد لكل أمر عدته، ثم يرضى بعد ذلك بما قضاه الله ، وأراده بنفس راضية مطمئنة، وقد علّم أمته أن يتوكلوا على الله ويأخذوا بالأسباب العادية فقال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢).

فهذه الطيور تركت أعشاشها، وخرجت تبحث عن أرزاقها،

---

(١) فتح البارى ٦ / ٥٥١. (٢) مسند الإمام أحمد ١ / ١٨٢.

فرزقها الله تعالى، ورجعت إلى أعشاشها ممتلئة البطون، ولو أنها بقيت قابعة في أعشاشها ، لهلكت جوعًا، ولذلك قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

(ليس بفظ ولا غليظ) هاتان الصفتان موافقتان لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وهنا يظهر لنا تساؤل وهو أن الله نفى عنه ﷺ الغلظة في التوراة وفي آية (آل عمران) السابقة ثم أمره بالغلظة في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...** ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]

فهل يعتبر هذا تعارضًا؟

والجواب: ليس في هذا تعارض، ويظهر ذلك من وجهين:

أحدهما: أن نفى الغلظة محمول على أن هذا طبعه الذى جبل عليه، وأمره بها محمول على المعالجة والتكلف.

ثانيهما: أن نفى الغلظة عنه بالنسبة للمؤمنين كما في

قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

والأمر بالغلظة بالنسبة للكفار والمنافقين كما في الآيتين(١) .

(ولا سخاب في الأسواق) أي أنه ﷺ ليس صياحًا في الأسواق ولا صخابًا .

وقد استدل ابن حجر بنفي هذه الصفة عن رسول الله ﷺ على أن دخول الإمام الأعظم السوق لا يحط من مرتبته؛ لأن النفي ورد في ذم السخب، لا عن أصل الدخول(٢) .

ولذلك رد الله على المشركين عندما قالوا: ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ . . . ﴾ [الفرقان: ٧] .

بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] .

فدخول الأسواق ليس عيبًا يحط من مرتبة أي إنسان مهما علا قدره، وارتفعت منزلته، ما دام مبتعداً عن شرور هذه الأسواق، ملتزمًا بآدابها .

(ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر) يعني

---

(١) ينظر فتح الباري ٨ / ٤٥٠ .

(٢) فتح الباري ٢ / ٤٠٢ .

أنه ﷺ لا يقابل سفاهة الناس، وجهالتهم، وسوء أخلاقهم بمثلها، ولكنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن هفواتهم، بل إنه كان يصل من قطعه، ويعطى من حرمه ويحسن إلى من أساء إليه، وهذا أدب رفيع من أدب الإسلام حث عليه القرآن، وأمر المسلمين به، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]

ولو لم يتسامح الناس، ويغضى بعضهم عن هفوات بعض، لانقلبت حياتهم إلى عذاب مقيم، وجحيم لا يطاق؛ لأنهم جميعًا ليسوا معصومين من الأخطاء، والكمال فيهم بعيد المنال وصدق من قال:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب؟

ومن قال:

من لك بالمهذب الندب[1] الذى

لا يجد العيب إليه مختطى

---

(١) الندب الرجل الخفيف فى قضاء الحاجات.

إذا تصـــــفـــــحت أمـــــور النـاس لـم
تلف امـــرأ حـــاز الكمـــال فـــاكـــتـــفى

(ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله) أى لن يميته الله حتى ينفى الشرك، ويحطم الأصنام، ويقيم دولة التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وقد نصر الله رسوله على المشركين وحطم الأصنام التى كانت منصوبة على الكعبة يوم فتح مكة وهو يقول: ﴿ **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] .

وعادت الملة إلى استقامتها التى كانت عليها أيام نبى الله إبراهيم عليه السلام وانحرف بها الناس إلى عبادة الأصنام، وقد حقق الله وعده ، وأنسأ أجل رسوله محمد ﷺ حتى أكمل الدين وأتم النعمة وأنزل قوله: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] .

روى الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على الصحابة رضوان الله عليهم، فرحوا جداً، وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكر (رضى الله عنه) فإنه بكى فسئل عنه فقال: هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله (ﷺ) فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فكان ذلك دليلاً على كمال علم

الصديق حيث وقف من هذه الآية على سرّ لم يقف عليه غيره، وقالوا: إن رسول الله ﷺ لم يعمر بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً[1].

(ويُفْتَحُ بها أعينٌ عمي وآذان صم وقلوب غلف) أي ويفتح بلا إله إلا الله أعين عمى... وليس العَمَى، والصمم، وتغليفُ القلوب على حقيقته، بل هو مجاز عن الضلال وعدم الاهتداء إلى طريق الحق والفلاح.

قال صاحب الكشاف في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٢].

«الأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة»[2].

وقد هدى الله بلا إله إلا الله، وبرسوله محمد ﷺ كثيراً من الضالين الذين كانوا يعبدون من دون الله آلهة أخرى وأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان قال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...** ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) مجلد ٦/١/١٤٢.

(٢) ٢/٣٦٩.